

مِصْرُ وَسُورِيَّةٌ فِي الْعِصْرِ الْقَدِيمَةِ

للأستاذ الدكتور
نجيب ميخائيل
الأستاذ بكلية الآداب

(١٨ - مارس ١٩٥٨)

سيداتي ... سادتي

درجت جامعة الاسكندرية على سنة حميدة هي ايقاظ الوعي الثقافى بالمدينة عن طريق تنظيم سلسلة من المحاضرات العامة فى موسم ثقافى سنوى ؛ وقد علمت منذ ثلاثة أسابيع أن سلسلة هذا العام تتناول الدولة العربية المتحدة من زوايا مختلفة ، وأن حظى منها دراسة العلاقة بين مصر وسورية منذ أقدم العصور حتى قيام الاسلام والقضاء على الامبراطورية الساسانية والامبراطورية الرومانية بظهور دولة العرب فى أفق التاريخ .

وكان يجلس الى جانبي حين تُشرِّفتُ بذلك التكليف زميل من الأثرين المصريين ما لبث أن قال لى :

انى أشفق عليك أشد الاشفاق .

قلت : ولمَ ؟

قال : ماذا ترمع أن تقول ؟

قلت : لا أدرى .

وكأما أطمعه ذلك الرد فقال : نحن معشر الأثرين درجنا على الايمان بمصرنا الفرعونية نفخر بها ونتعصب لها ونحس بأن الدماء التى تجرى فى عروقنا مصرية خالصة ... علمنا ذلك أساتذتنا وقرأناه فيما قرأنا من كتب وطالعناه فيما رجعنا اليه من بحوث حتى غدا عقيدة لا أعرف لك كيف تتخلص منها فى يسر وسهولة ...

قلت له رويدك . العرب كل والمصريون جزء فليس من اللازم أن يكون العرب مصريين . وليس ما يمنع من أن يكون المصريون عربا ... بل هم عرب - ان جاز أن يكون هناك جنس خالص لم تشبهه شائبة صلته بغيره ...

قال هذه نعمة جديدة لست أدري كيف تستطيع أن تضبط إيقاعها
على الاسماع .

قلت سترى . وستروك حين تفتح آذانك لتصل الى قلبك فاذا أنت
مؤمن بعروبتك ايمانك بمصريتك .

قال : كان الله في عونك .

قلت ... كان الله في عوننا جميعا ... كان الله في عون هذه الدولة العربية
المتحدة التي تربصت بها حكومات الأهل والأصدقاء فشاء ربك الا أن يرد
كيدهم الى نحورهم فاذا هم صرعى والعاقبة للمتقين .

* * *

وتركته لشأنه وأخذت أسائل نفسي

أأنت عربي حقا ؟ لو أن العرب هم الذين نعينهم بثمره الغزوة التي تمت
على يد عمرو بن العاص فان دماءك لم تمزج بدماء عربية فأنت مسيحي قبطي
مسيحي مصري ... والعرب حين دخلوا الى مصر غيروا من دينها وغيروا
من لغتها واعتنقت غالبية أهل البلاد الاسلام واتخذوه دينا من بعد النصرانية
ثم غدت اللغة العربية لسانهم جميعا من أسلم منهم ومن بقى على دينه ...
وواحد من أسلافك لم يرتبط بصلة نسب بهذه المجموعة من العرب فأنت
بهذه الصفة لست عربيا ...

وسرعان ما اسعفتي منطق التاريخ ومنطق الواقع ومنطق الأحداث
تقول جميعا ... ان قيام دولة العرب لا يحدد نشأة العرب بظهور الاسلام ،
والعروبة ليست دينا ولكنها جنس وعنصر ، والعروبة كائنة قبل الاسلام
كانت تشتمل الوثني والنصراني ... فلا غبار عليك فاستخر الله وأقدم ...

سادتي

في الخامس من شهر مارس الحالي أعلن نص الدستور المؤقت وأذيع في احتفال شعبي بقصر الضيافة بدمشق الشام ، وجاء في المادة الأولى منه :

” الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية
مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الأمة
العربية “ .

وجاء بالمادة الثانية :

” الجنسية في الدولة العربية المتحدة يحددها
القانون ، ويتمتع بجنسية الدولة العربية المتحدة
كل من يحمل الجنسية السورية أو المصرية
أو يستحق أيا منها بموجب القوانين والأحكام
السارية في سورية ومصر عند العمل بهذا
الدستور “ .

فمن هم العرب ؟ وما هي مصر ؟ وما هي سورية اللتان تكونان اليوم
نواة الجمهورية العربية المتحدة ؟

* * *

ان أقدم ذكر لكلمة ”عرب“ جاء في عهد الملك الأشوري شيامنصر
الثالث في أخبار حروبه في بلاد الشام في موقعة القرقار عام ٨٥٣ ق.م .

وقد تردد ذكر الكلمة بعد ذلك في المصادر المسماة ويقصد بالعرب
في هذه المصادر سكان بادية الشام ونعني بها البادية الشمالية للجزيرة العربية .

وقد وردت الكلمة في صيغ تشير رغم اختلافها أحيانا الى اشتقاقها
من مادة واحدة .

ووردت الكلمة مضافا إليها ياء النسب في نقوش « دارا » وتنطق عربايا Arabaya وتشير الى سكان البوادي مما يدل على أنها صفة مشتقة من البادية أو الصحراء .

ويرجح أن كلمة "عرب" مأخوذة من مادة "عرب" بمعنى أمحل أو أجذب وهو فعل قليل الاستعمال في كثير من اللغات السامية ، وقد استعملت صيغة عرابة أو عربية العبرانية اسما للأرض المقفرة التي تمتد الى النهاية الشمالية الشرقية من البحر الأحمر .

وجملة القول أن كلمة عرب أطلقت منذ القرن التاسع قبل الميلاد واضطرد استعمالها واتسع حتى أصبحت علما على سكان الجزيرة ، ثم استعملت الكلمة بعد الهجرة الكبرى منذ الفتح الاسلامي فاشتملت في معناها معظم أقطار الشرق الأدنى وصارت تحمل في مفهومها النواحي الثقافية والحضارية بالإضافة الى مفهومها القومي والعنصري .

هذا عن كلمة عرب ...

أما "مصر" فكلمة تعنى في اللغات السامية "الحد" أطلقتها الأشوريون كذلك على تلك البقعة المباركة من الأرض التي نعيش عليها ، وأطلقت الشعوب السامية من بعد الأشوريين ... من آراميين وعبرانيين وعرب على أهلها اسم مصريين ... وأما أسلافنا قبل غزوة أشور لمصر فكانوا يطلقون عليها اسم "كمت" ويعنون بها الأرض السوداء مفرقين بذلك بينها وبين الأرض الحمراء أي الصحراء التي كانوا يسمونها "دشرت" .

* * *

وأما سورية فكلمة يونانية محورة من أصل سامي قديم ، وقد وردت كلمة Shryn في النصوص التي عثر عليها في أوغاريت (راس شمرة) والتي ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وقد أطلقت كلمة "سريون" في المصادر العبرانية على إقليم لبنان الداخلى
ثم أطلقت على بلاد الشام جميعا .

وقد سمي البابليون اقليما في الفرات الأعلى باسم "سو - رى"
و "سر - رى" .

واستعملت كلمة سورية منذ العهد اليونانى كما قدنا وكنت تعنى
بلاد الشام جميعا . أما كلمة الشام فهي تسمية عربية للاقليم كله وتعنى اليسار
أو الشمال بالمقابلة مع اليمن التى تعنى اليمن أو الجنوب وذلك بالنسبة الى أهل
الحجاز ... كما نقول اليد اليمنى واليد الشوى .

✦ ✦ ✦

وتعد الجزيرة العربية مهد الجنس السامى ومرباه تدفق أهله موجة اثر
موجة فى هجرات متتابعة حين تهددهم الجفاف والجذب بالموت جوعا
فى صحراواتهم المترامية الأطراف .

وتبدأ هذه الهجرات فى نهاية العصر الجليدى الرابع منذ حوالى خمس
وعشرين الف عام وذلك حين أخذت موجة الجليد الرابعة تنجاب عن سطح
الأرض وأخذ الجفاف يحل بالمناطق التى كانت تعج من قبل بالحياة وترخر
بالغابات الكثيفة فاذا هى من بعد تتحول الى صحارى تقاسى من قلة المطر
وندرته ... وكانت حالات الجذب تنور كالبكر كان وتقذف بأمواج شديدة
البأس من القبائل يهيمون على وجوههم يلتمسون الحياة فى المناطق الحصبة
التي تقع عند وديان الأنهار ... الى الشمال الشرقى والى الشمال والى الشمال
الغربى والى الغرب ... الى وادى الرافدين والى سورية والى وادى النيل عبر
البحر الأحمر أو عن طريق سيناء ، وأخذت هذه الهجرات تتخذ صورة شبه
منتظمة منذ الألف الرابع قبل الميلاد بقدر ما استطاعت البحوث الأثرية
أن تحدد وأخذت تظنى على الشرق الأدنى منذ منتصف الألف الرابع
فأثرت فيه ... وأما فى الشرق فى وادى الرافدين فكانت أول الدول
التي أنشأها الساميون هى الدولة الأكديّة أسسها سرجون الأكدي حوالى
٢٤٠٠ ق.م . وتفرد الساميون بالزعامة السياسية على الشرق الأدنى منذ بداية
الألف التالى أى بعد زوال سلالة أور الثانية التي كانت آخر دولة للسومريين .

ومن الجزيرة العربية نزحت هجرات أخرى الى الشمال ... الى الشام واستطاعت أن تنشئ دولا ذات شأن لها ثقافات تميزها ... ولسنا نستطيع هنا أن نلتزم الحدود السياسية الحالية فهي حدود مصطنعة لا هي تمثل مراكز الثقافات القديمة وسعة انتشارها ولا هي تشير الى مدى ما كان بينها من صلات وروابط ... لم يحدث في التاريخ القديم أن فرق بين ما نعرفه اليوم بليمان وفلسطين والأردن وسورية .. كلها كانت الشام وكلها تعنى في نظر جمهرة المؤرخين اقليها واحدا ليس من الميسور قسمته وليس في المقدور تجزئته ... وهو الاقليم الذى يتوسط القارات الثلاثة فى العالم القديم ، والذى يتوسط حضارتين أخذ منهما حين حملتا مشعل الحضارة وأعطاهما حين استطاع أن يستكمل مقوماته الحضارية ... وهما حضارة وادى الرافدين شرقا ووادى النيل جنوبا .

ولعل أخطر المؤثرات التى صنعت تاريخ هذا الاقليم وطبعته بطابع خاص مركزه الجغرافى الممتاز حيث كان محطاً لهجرات البدو الساميين منذ أقدم العهود ولئن وصف بأنه البوتقة التى انصهرت فيها الثقافات التى تجاوره من جانبيه فإنه كان كذلك البوتقة التى انصهرت فيها الحضارة والبداءة ... وكانت حصته من موجات الساميين أكثر من غيره حيث تعرض لخمس هجرات منها على الأقل حتى غدا مهدا للهجرات السامية الفرعية الى نواحي الشرق الأدنى القديم .

* * *

كانت الموجة الأولى من الموجات السامية على بلاد الشام موجة العموريين الذين تقدموا الى ناحية الفرات الأوسط فى منتصف الألف الثالث وكونوا هناك دولا مركزها شمال سورية ووسطها . والكلمة السومرية للعموريين هى مارتو وتعنى الغرب ... وبلاد عامور اسم آخر لسورية أى الغرب ... وقد بلغت دولتهم ذروة سلطانها السياسى فى النصف الأول من الألف الثانى .

وقدمت موجة ثانية عرفت باسم الكنعانيين استوطنت السواحل السورية وتأثرت بمصر أكثر مما تأثرت موجة العموريين الذين بدا أثر وادى

الرافدين عليهم واضحا ... وكانت كلمة كنعان تطلق أصلا على الساحل والقسم الغربي من فلسطين ثم عم استعمالها فشملت قسما كبيرا من سورية وفلسطين جميعا كذلك ... ولم يتح للكنعانيين تأسيس دولة كبيرة وان نشأت اتحادات بين مدنها المختلفة حين كانت تهددها الأخطار .

أما الجماعة الثالثة من جماعات الهجرات السامية الى الشام فكانوا الأراميون الذين استوطنوا الفرات الأوسط منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وخرج منهم فرع تغلغل في وادي الفرات الأسفل وعرف باسم كلدو، وكانت أشهر الجهات التي استقروا فيها الفرات الأوسط خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ثم أخذوا يضغطون على العموريين والحوريين والحيتيين ويحلون محلهم ... وصدتهم جبال لبنان عن التقدم الى أبعد من ذلك ... أما الكنعانيون فقد ظلوا في مواطنهم لا يؤثر فيهم هذا الضغط الجديد ، ثم نازعهم الآشوريون وحاربوهم وانتقل النزاع الى بلاد الشام حيث أسس الأراميون دويلات مثل دمشق وحماه وحلب قاست من جراء ضغط الآشوريين مما عاق قيام دولة كبرى من الاراميين . وكان من أهم الممالك الارامية دمشق التي تعرف باسم أرام دمشق وجاءت في النصوص المصرية أحيانا تحت اسم ترمسكي محرفة من دار - ميشيق (حصن أو قلعة ميشيق) وجاءت في نصوص العمارة دمشقا كما وردت تحت اسم تَمَشَجِي ، وأسست في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد وقت ظهور الملكية عند العبرانيين وظهرت أكبر من غيرها من الدويلات الأرامية وامتدت شرقا الى الفرات والبرهوك وجنوبا على حساب العبرانيين وتاخمت الدولة الآشورية من الشمال ودخلت تحت سلطانها سورية الداخلية الى الشرق من لبنان وكذا سورية الشمالية وهوران حوالى الألف الأول قبل الميلاد .

أما الموجة السامية الرابعة فقد ظهرت على شكل هجرات ثلاثة أولها مع المكسوس وثانيها مع الأراميين والثالثة بعد ذلك بترن من الزمان ، وجاءت مع هذه الموجة قبائل أخرى من المؤدابين الذين استوطنوا فلسطين

وشرق الأردن ، ومن القبائل السامية الوافدة كذلك في هذه المرحلة أو في أعقابها النبط وغيرهم ممن أعقبوهم كاللخمين والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام .

وأما خامس الهجرات الكبرى وآخرها فهي هجرة القبائل العربية والفتح الاسلامي للهلال الحبيب ، وهي هجرة لم تكن دوافعها كدوافع الهجرات السابقة ، وهي الهجرة التي طردت الفرس الساسانيين والرومان ودكت عروش اباطرتهم ونشرت الدين الاسلامي وشادت أسس الحضارة الاسلامية العربية .

* * *

هذا عن سورية ... عن الشام ... سامية عربية كما رأيتم غدتها الجزيرة بقبائلها التي وفدت اليها حين أضر بها الجوع والقحط في أغلب الأمر فتقبلتها حفية بها وصهرتها في بوتقتها جيلا بعد جيل وكونت من هذه العناصر جنسا من أصل واحد وان اختلفت فروعها .

* * *

أما مصر فلها شأن لا يبعد عن ذلك كثيرا ...

استقرت الطبقة الأولى من سكانها على ضفتي النهر حين حل الجفاف بالهضبة وكانوا أصلا حاميين قادمين من نواحي الصومال أو من البربر الوافدين من الصحراء الليبية ، ومنذ عهد قبيل التاريخ طرأ تغيير جوهري بسبب نزول القبائل السامية القادمة من الشرق أو من الجنوب الشرقى وامتزجت هذه الأجناس جميعا كما سنرى وخرجت مصر بأهلها من حياة الصيد الى حياة الزراعة التي تتطلب التعاون والتماسك ...

وليست قصة التسرب من الجزيرة العربية أقل قدما من قصة التسرب الى أرض الشام بل هي ان لم تكن معاصرة لها أقدم منها على الأرجح ، ويحدثنا عنها هنا القصصى الدينى كما تشير اليها المخلفات الأثرية :

قدمت في عصر الحضارة الأولى موجة من الجنوب الشرقي عن طريق وادى الحمامات كان أصحابها يعبدون حوريس ، وسار المهاجرون الجدد على طول الوادى شمالا حتى استقروا في غرب الدلتا ، وظلوا دهورا يسلمون السكان الأصليين الحاميين المنتشرين على طول الحد الغربي من البحر المتوسط الى النوبة ، ولكن موجات أخرى بدأت تتقدم وتدخل البلاد عن طريق شرق الدلتا وكان أصحابها متفوقين من ناحية الأساحة النحاسية التي يحملونها ويعرفون بأصحاب الرمح ، وقد استقروا في الدلتا كلها فطردوا السكان الأصليين الذين كانوا يتبعون ست ويتخذون منه اماما وزعيما وإلها ... طردوهم الى الجنوب وهنا بدأت التفرقة بين الدلتا والصعيد ؛ وبعد أن غدت الصدارة لحوريس قدمت هجرة أخرى من الأراضي المجاورة لآسيا الغربية تحت قيادة أوزيريس واستقروا في شرق الدلتا ... ولم يكونوا رجال حرب بل رعاة مسلمين اعتمروا الاستقرار ثم اندمجوا في أهل البلاد الذين رأوا في أوزيريس الإله صورة الأخ لإلههم ست ، وكان القسم الشمالى من الدلتا مفضلا لدى أوزيريس وقومه ، وكانت صاحبة ايزيس السمبودية التي اتخذ منها أوزيريس زوجا له .

وجاءت في نفس الوقت مجموعة أخرى من المهاجرين ... اخترقت الدلتا واستقرت عند رأسها في هليوبوليس (ايون) وهم قوم العمود المعروفون بالايونتيو جاءوا من جزائر البحر المتوسط أو من الشواطئ الشمالية الشرقية وما وراءها وكان على رأسهم رع وكانوا على جانب كبير من الثقافة والفهم ومعظمهم من التجار وأصحاب الحرف وقد ارتبطوا بروابط الود مع اتباع اوزيريس وحوريس ثم ست .

ووجد اتباع حوريس أمورا مشتركة بينهم وبين أوزيريس واتباعه فهما معا مجموعتان جاءتا من غرب آسيا وساعد على تحول الثقافة العربية وبدء ما يسمى بالحضارة الثانية لعصر ما قبل الاسرات في وادى النيل عامة وغرب الدلتا خاصة هذه الروابط المشتركة من ناحية واسهام اوزيريس اسهاما سلميا فعلا وثقافة رع وذكاؤه . وسرعان ما تطورت قيادة

حوريس ووسائل اوزيريس السلمية وثقافة رع المرفهة الى وحدة الدلتا فتكونت مملكة مصر السفلى بفضل النشاط الحربى لحوريس كملك حقيقى عاصمته بوتو (ابطو - تل الفراعين) ومع ذلك فقد كان طابع السلام الذى يميز اوزيريس طابعا تبشيريا وسرعان ما جد أعوانه فى التوغل حتى وصلوا الى ابيدوس واستطاع هو بذلك أن يكسب ملكا يصل ما بين الدلتا وبيدوس فى أعلى الصعيد مما يضع تحت ناظرنا صورة لأول اتحاد بين الدلتا والصعيد أو الجانب الأكبر من الصعيد على الأقل .

وأغضب ذلك ست وأعوانه سكان البلاد الأصليين ولم يكن اوزيريس رجل حرب فراجع الى موطنه فى الدلتا - بوزيريس - حيث تمكن منه أعداؤه وذبحوه ، ولكن أتباعه اعتقدوا بأنه بعث ليحكم العالم السفلى ... وأثار ذلك حوريس ، وكان قائدا وكان ملكا على مصر السفلى وكان عليه أن ينتقم لأبيه فنشب صراع جديد بينه وبين ست استطاع أن يتغلب فى نهايته ويغزو الصعيد ويدفع بأعوان ست الى أعلى النهر ثم الى الواحات والصحارى.. وهكذا تم التوحيد الثانى للدلتا والصعيد .

وظل لواء الحكم معقودا لحوريس وأتباعه من بعده حتى قدم وافدون جدد من الشرق كذلك شقوا طريقهم للدلتا يحملون أفكارا جديدة ... ولم يكن رع يعنى كثيرا بالصعيد أو بأعمال حوريس بل كان فى نفسه ميل الى ست وحدث صراع جديد بين الدلتا والصعيد وظل أتباع حوريس ثابتين على العهد مرتبطين به - وكان معظمهم من الجنوبيين - ثم استعرت الحرب وغدت العداوة مكشوفة بين الجنوب والشمال حتى كتبت الغلبة فى آخر الأمر للجنوب تحت لواء واحد من أتباع حوريس هو منى الذى أعاد للبلاد وحدتها وهى الوحدة المعروفة بالتوحيد الثالث وهو التوحيد الذى كان من أثره ان ثبت أتباع حوريس أنفسهم على عرش مصر العليا والسفلى وأصبحوا ملوكا جعلوا من حوريس الها ملكيا حتى نهاية العصور الفرعونية .

* * *

ولئن ترجمنا هذا القصص الدينى الى مفهومه الحقيقى لوجدنا أن الآلهة كانوا فى أول أمرهم زعماء تحولوا الى أبطال أساطير فآلهة وان مصر

كان يسكنها عنصر حامي استقر على الضفة الغربية نازلا من الصحراء الغربية بعد أن حل الجفاف بالهضبة وبدأ يتحول من حياة الصيد الى الزراعة ... ثم أخذت الهجرات من الشرق تتسرب على هيئة موجات متتابعة يمتزج أصحابها بسكان البلاد الأصليين ثم يغلبونهم على أمرهم ويدفعونهم الى الفرار الى أعلى الصعيد أو الى الهروب الى الواحات أو الى الصعيد الى أعلى النهر .

ويبدأ جنس سائي جديد في الاستقرار وارساء قواعد الحضارة ، وتشير المصادر جميعا الى المسارب التي دخلت عن طريقها هذه الجماعات الى الدلتا والصعيد فبعضها عبر البحر الأحمر من الشرق الى وادي الحمامات وشق طريقه شمالا ، والبعض الآخر جاء عن طريق سيناء والفريق الثالث جاء من الشمال الشرقي من جزر البحر أو من سورية .

انها الجزيرة العربية مرة أخرى أيها السادة - مصدر هذه الموجات جميعا التي انفجرت لا من الالف الرابع فقط بل أن آخر موجة سامية كبرى كانت في الالف الرابع على الأرجح .

فنحن عرب ... مصريون عرب ... وسوريون عرب ... كلنا عرب بحكم التاريخ العتيق ... بحكم تاريخ ما قبل التاريخ ... نحن عرب منذ عمر هذا الوادي واستقرت به الحياة بعد الهجرات المستمرة ... والتاريخ طفل لا يزال في المهده ...

فما حكم تاريخ العصور التاريخية ... ما حكم التاريخ القديم ؟

حاول ملوك التوحيد الثالث في عهد الأسرتين الأولى والثانية الفرعونيتين أن يثبتوا أنفسهم على العرش الحوريسى ، وجهدوا في تنظيم البلاد في الداخل وعكفوا على العمل لرفعة هذا الوطن الذي هدته من قبل التفرقة والانقسام ، ولكن الأمور لم تكن سهلة ميسرة ، ذلك لأن اتباع ست نشطوا مرة أخرى فقام صراع جديد كاد يعرض وحدة البلاد للضياع ولكن الأمر انتهى لحسن الحظ بالغلبة لأعوان حوريس في نهاية هذا العهد الذي استغرق أربعة قرون من عمر البلاد .

وقد عرفت مصر خلال هذا العهد وخاصة الطريق الى الشواطئ السورية كما عرفته الى بلاد بونت ، وبدأ التبادل التجارى يتخذ صفة الاستمرار وكانت مصر تستورد من فينيقية - من شواطئ سورية - خشب الأرز الفاخر الذى يستخدم فى مختلف الأغراض وخاصة الدينية منها ، كما تستورد من الجنوب التوابل والبخور وغيرها من منتجات بونت ... وكان ينقل التجارة الشمالية بحارة فينيقيون يبادلونها بسلع مصرية ... ومن المعروف أن الثقافة تنتقل مع التجارة وهكذا بدأ بحارة فينيقيا منذ هذه المرحلة من التاريخ يحملون ذلك العبء حتى لتعد فينيقيا شاطئ سورية حامل مشعل الحضارة الانسانية الذى سار بها من مصر الى اثينا الى روما ومنها الى العالم المتحضر الذى ينعم اليوم بثمارها بعد أن جحد فضل من ورثه اياها كما يجحد اليافع المتحلل فضل أسلافه الذين ورثوه ما ورث بكدهم الطويل .

* * *

ولت أيام الدولة القديمة فلم تلبث البلاد أن مرت بمحنة وتعرضت لغزوة جديدة قضت على الأمن الداخلى أو شجع عليها اضطراب الأمن فى الداخل وكانت الهجرة الجديدة من شرق الوادى يرى بعض المؤرخين أن أصحابها نزحوا من شمال سورية الشرقى وسيطروا على شمال البلاد ومدوا سلطانهم على بعض الأقاليم فى مصر الوسطى ... ويرى فريق آخر من المؤرخين أن أصحاب الغزوة من العرب أصحاب البادية الذين يستمرثون ظل الحضرة ولكنهم لا يألفون الإقامة فيه الا بمقدار ، ولم تترك هذه المرحلة من التاريخ من آثار على الأرض غير ما كان من توافه الأمر أو سقط المتاع ... ومهما يكن من شئ فإنها تمتاز بطابع غريب ينزع الى الشرق ويميل فى اتجاهاته ونواحيه الى فنون سورية وما تكاد أيامها تنهى حتى تختزن مصر ذلك الطابع وتضمنه أصول حضارتها العتيدة .

* * *

ولم تلبث مصر أن اقيلت من عثرتها على يد ابن من أبنائها من الصعيد وسعت تسترد مكانها الأول الذى عرفته لما دنيا الحضارة من قبل فجاءت

قامت في أعقاب ذلك دولة نعرفها باسم الدولة القديمة ... استمر حكمها كذلك حوالي أربعة قرون أخرى ... وتشتمل العصر المعروف بعصر بناء لأهرام ثبتت الدولة خلاله نظم الحكم والادارة والتوحيد وتجلى الرخاء والثراء في مختلف نواحي الحياة وكان ذلك ثمرة جهود داخلية ونشاط مستمر عاد بالخير على البلاد وطبع حضارتها بطابع خاص يميزها ، وبلغت قوة الخلق والابداع القمة وشارف النظام الذروة حتى لتتم الأعمال التي تمت خلاله عن قوة وعظمة تأسران اللب وتتجلى هذه الروح الخالقة المبدعة في سائر نواحي النشاط .

أخذت مصر خلال ذلك العصر تعنى بالمناجم وكانت الرحلات الى سيناء متتابعة تستهدف استخراج النحاس والفيروز والذهنج ، وتقدم لنا بعض نصوص الأسرة السادسة اسم واحد من كبار الموظفين يدعى اوني كان يشغل وظيفة ناظر الخاصة لأكثر من ملك من ملوك الأسرة ، وضاق واحد منهم بما تتعرض له بعثات المناجم من اعتداءات من البدو الرحل ومن سلب لمتاعهم ومن تحرش بالمصريين حين يلقونهم من وراء هذا الوادي فأوفده لتأديبهم وقد نجح اوني في مهمته وقاد الجيش خمس مرات الى هذه النواحي من سيناء ولكن واحدة من هذه الحملات التأديبية تستحق الالتفات - وهي آخر الحملات - ذلك لأنه علم أن أولئك الرحل كانوا لا يزالون على شيء من النشاط في منطقة أنف الرثم (جنوب الكرمل) "فعبث البحر بالمرالكب" على حد تعبيره ، ونزل الى الشاطئ في آخر تلال تلك الأراضي الجبلية في شمال أرض البدو ، وبينما كان نصف الجيش في الطريق البري - كما يقول - أتى هو وجمعهم الى بعضهم وقضى على تكتلاتهم ... كانت هذه أول حملة في التاريخ تتعاون فيها القوات البرية والبحرية معا ... وكانت أول حملة في التاريخ استعملت فيها طريقة الكماشة للاحاطة بالعدو ... ولكن الخطير في الأمر هنا هو أنه نزل بالحملة البحرية عند جنوب الكرمل في جنوب فلسطين ومن المفهوم أن قائدا بحريا لا يستطيع أن ينزل الى أرض معادية والبحر ورائه ... بل ان العون الذي لقيه في جنوب فلسطين يشر الى ود وتعاون كانا قائمين بين سكان هذه النواحي وبين مصر وأن الشعبين استهدفا وتعاون للقضاء على شرادم عصابات اللصوص التي تهدد بعثات التعدين هناك .

أيام الدولة الوسطى في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد تبشر بعصر جديد استغرق قرابة القرنين خرجت مصر خلالها من عزلتها النسبية وبدأت تعزز اتصالاتها بجيرانها الأقربين وتدعم ما كان قائماً بينها وبينهم من قبل من صلات ود وجوار ... وانا لثرى في أخريات أيام أول فرعون من فراعين الدولة الوسطى مثلاً قويا لهذه الروابط ... ذلك أنه حين جاء النبا لولى العهد منذرا بموت أبيه استمع الى النبا عن طريق المصادفة أحد أفراد الأسرة ويدعى سنوهى وفر هاربا لينجو بجلده مما قد يصيبه بعد أن فقد العون والنصير ... وقد خلف لنا ذلك الأمير قصته ويروى فيها ظروف هربه ثم هجرته الى فلسطين فجيبيل حيث أمضى عاما ونصف عام ثم استقراره في نهاية الأمر في هذه النواحي وهو يشير الى ما لقي من رعاية وما تمتع به من جميل عشرة وحسن جوار كما يشير الى أنه أصهر الى أحد شيوخهم ...

وهناك من فترة مقارنة نصوص وصور سجلتها إحدى مقابر بنى حسن وهى مقبرة خنوم حتب الثانى من عصر سنوسرت الثانى وتشير الى هجرة قام بها الساميون الى مصر وكان عدد أفراد القبيلة سبعة وثلاثين تحت قيادة "ابشا" وتمثلهم الصور على جدران المقبرة يقدمون هداياهم الى صاحب المقبرة مما يشير الى قيام علاقات ود ومما يؤكد أن الطريق كان مفتوحا لتحركات الشعين ولقى الجميع ما يلقي الطارق من كرم اللقيا وحسن الضيافة ... وبلاحظ في هذه الجماعة انها مكونة من رجال ونساء يصحبهم طفلان وان الرجال يحملون حرابا وأقواسا ، وللنساء شعور سوداء وينتعلن أحذية ... وللرجال لحي ، ووجوههم سامية ويميزهم الأنف السامى ... والكل يلبسون ملابس صوفية زاهية ويحمل رئيسهم لقب حق أى الأمير ...

ورغم العلاقات الطيبة في هذه المرحلة بين مصر وسورية فان الضاربين في الصحراء بين البلدين ظلوا على حالهم يندفعون الى الشمال كما يندفعون الى الغرب كلما أضر بهم شظف العيش ولم يكونوا مسلمين دائما مما دفع مصر الى أن تجدد بناء حائط الحدود لتنظيم المرور الى داخل البلاد ولتكف

عن مصر أذى غزوة جامعة ذاقت منذ قليل آثار التخريب التي نجمت عن مثيلة لها والتي قد تدفع بعض هؤلاء الى تقويض بنيان الحضارة ، ومصر حريصة على سلامته وتدعيمه .

وتشير مختلف النصوص الى أن الصلات توطدت بين مصر وجبيل أشهر مدن الشاطئ السوري في ذلك العصر . وقد عثر في جبيل على نقوش وكتابات هيروغليفية تتضمن ذكر اسم صاحب لقب مصرى كبير مما يشير الى وجود سفارة لمصر هناك يغلب على الظن أنها كانت تستهدف رعاية الشؤون التجارية بين البلدين . وليس من شك أن تأثير جبيل كان واضحا طوال عهد الدولة الوسطى ، ولسنا نستبعد أن بعض المصريين كانوا يقيمون في بعض نواحي سورية يتجرون أزمانا تختلف طولا وقصرا وخصوصا مع بعض مدائن الساحل الفينيقي ، ففي حديث سنوهى ما يشير الى كثرة تردد المصريين على البلاد السورية ، وظواهر الأمور كلها تدل على أن العلاقات بين مصر وسورية كانت على أحسن ما نستطيع أن نتخيل من ود وصفاء .

* * *

ولكن أيام الدولة الوسطى لم تطل ... لم تزد عن القرنين الا بيضع سنوات فتحت بعدها أبواب الفتنة مرة أخرى على مصاريعها حتى قل من أصحاب القوة من استطاع أن يتجنبها ولم يشارك فيها ، واضطربت الأحوال وتعقدت الأمور ، وسادت الفوضى وعم الفساد ومهد ذلك لمحنة جديدة فاذا بأفواج الهكسوس وجيوشهم تندفق على البلاد من شرق الدلتا ... وهم جماعات مختلف المؤرخون في أصلهم وفي الجهة التي قدموا منها فمن قائل إنهم من بطون القبائل السامية المنتشرة في فلسطين وفي ربوع سورية وبلاد الجزيرة العربية نزحوا الى مصر بسبب ما أصاب وديانهم من جذب وقحط وجفاف . ومن قائل إنهم هاجروا من الأقطار السورية حينما ضاقت عليهم أرضها بسبب ما حل بهم من ظلم حكام ميثاني من ناحية وبسبب ضغط

المهاجرين الآريين من ناحية أخرى ... ومهما يكن من أمر فقد كان الهكسوس أصحاب غزوة وغيرة يجيدون صنعة الحرب ويستخدمون الحصان يجرون به عجلاتهم الحربية ... وهم لم يكونوا شعبا واحدا وان كانوا في أغلب الأمر خليطا من ساميين وآريين ، ولعل أحداث العهد لا تبين الا اذا قاربنا ما بينها وبين أحداث آسيا المعاصرة التي تشير الى أن دولة بابل في سوريا الكنعانية قضى عليها عنصر هندوآوري أتي من أواسط آسيا في أوائل القرن العشرين قبل الميلاد... وأسس ملك من ذلك العنصر امبراطورية مدت سلطانها من حلب والاسكندرونة الى البحر الاسود ، وقام واحد من خلفائه هو مورسيل الأول في عام ١٨٠٦ ق.م . بحملة استطاع عن طريقها أن يدخل حلب ويحرب المدينة ويتقدم بعد ذلك نحو بابل فيحتلها وينهبها ... ثم تنهار قوى الحيثيين فجأة لأمر لا ندره ولا تعاودهم الا بعد ثلاثة قرون ... وقد تأثرت بابل من هذه الصدمة المفاجئة حتى خضعت بعد ذلك لغزوة من الكاسيين الذين استطاعوا أن يحكموها مدى خمسمائة عام .. وكان من أثر انهيار الحيثيين أن طردوا من حلب ومن ميزوبوتاميا العليا ... طردهم منها جنس تسميه النصوص الحيثية بالخوريت ويسمهم المصريون ميتانيين ... وهم يمثلون فرعا من الجنس الهندوآوري ... وقد دفع الميتانيون خلال انهيار الحيثيين بهجمات على بابل وأشور ثم على حلب وقادش ، وبلغوا في منتصف القرن السابع عشر ذروة مجدهم فامتد سلطانهم على اقليم بين الفرات والعاصى ووقعت تحت ظلاله سورية حتى كنعان .

كانت الهجمات التي تعرضت لها سورية اذن هجمات هندوآورية عرف أصحابها الأولون باسم الحيثيين الذين كانوا يسكنون مرتفعات الأناضول ثم تغلبت عليهم بعد ذلك قلة هندوآورية عرفت بالميتانيين تأثرت بلغة الحكوميين وثقافتهم ... وأما في بابل فاستقر من الهندوآوريين الكاسيون وأثر العنصر الهندوآوري واضح في معبوداتهم .

والهندوآوريون لم يكونوا جنسا واحدا بل هم عبارة من مجاميع كانت تجوب على الأغلب الاقليم الواقع الى شرق وشمال بحر قزوين

وفي أواسط آسيا وقد حدث خلال الألف الرابع امتزاج بينهم وبين شعوب الهضبة الايرانية ، وحوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. وصلوا الى وحدة ثقافية وفي خلال الألف الثالث استعاروا بعض عناصر الزراعة من سكان القرى الفلاحين في تركستان وجنوب روسيا وأخذوا مبادئ التعدين من السومريين وظلوا مع ذلك رعاة وقد استخدموا الحصان في الحرب كما عرفوا الثيران للجدل والجر والحرب .

وانا لرى أنه في منتصف الألف الثانى أخذت شعوب هندوآوربية جديدة تثير العاصفة في وجه الامبراطورية الحيثية والامبراطورية المينوية فاندفعت قبائل ساهية جديدة الى الهلال الخصيب ... وكان من أثر الموجات المتتالية للحيثيين والكاسيين والخوريين الميثانيين التى تدفقت على ميزوبوتاميا وسورية الشمالية ان أخذ السكان يهربون أمام وحشيتهم وبربريتهم وأخذوا هم يطاردونهم فكان ذلك سببا في هجرة جديدة مختلطة الى مصر ... وهكذا كانت هجمة الهكسوس الجديدة لا تعنى جنسا واحدا بل خليطا من مجاميع قدمت أصلا من هضاب آسيا الصغرى وجذبت معها الساميين الكنعانيين ... واقتحم الغزاة الجدد حواجز الدلتا ومكثوا بمصر قرابة قرنين من الزمان ولم يستطيعوا أن يتوغلوا الى داخل البلاد ... وبعد أن ولى عنصر المفاجأة استطاع المصريون أن يقاوموا وان يقفوا في وجوههم وان يطردوهم ثم طاردوهم الى حيث تحصنوا في شاروهين في جنوبي فلسطين واستمر حصار المصريين لهم هناك ثلاث سنوات غلبوهم من بعدها فأفنوهم أو شردوهم .

* * *

كانت يقظة مصر في عصر الأسرة السابعة عشرة بداية عهد جديد ... قام المصريون يدا واحدة يردون الشر عن بلادهم ويدفعون المحتل الغاصب الى ما وراء الحدود ويسعون لتخليص الوطن من الذل والرق ويستردون لأنفسهم حق الحياة الحرة .

وقد اضطربت فلول الهكسوس بعد موقعة شاروهين في بقاع الشرق القريب يضربون بين أقاليم المختلفة ابتغاء الفتنة ، وأحسوا صدى دعوتهم عند أوليائهم فأخذوا يأتَمرون بمصر ويتربصون بأهلها الدوائر وامتدت أبصارهم إليها مرة أخرى يبغون الاعتداء عليها بمعونة هؤلاء الهكسوس وقد فرعون مصر امنحيب الأول الخطر وأعد له عدته فهدت جهوده لذلك الفتح الأكبر الذي تم على يد خلفه تحتمس الأول عند ما اندفع بجيوشه الى الشرق لأنه أدرك أن حدود الدولة يجب أن تصل الى المنحاة الفرات عند قرقيش واستطاع أن يوفق للوصول الى أهدافه بمعونة السوريين الذين كانوا يحسون بالمؤامرات من حولهم تلك المؤامرات التي تحاك خيوطها بمعونة فلول الهكسوس وأقربائهم في ميزوپوتاميا العليا (أعلى الفرات) من ناحية وفي بلاد الأناضول حيث يقبع الحيثيون من ناحية أخرى ، فلما كانت أيام تحتمس الثالث وحمل على أقاليم الشرق حملاته المعروفة أشار الى أن سلفه قد بلغ منحرج الفرات عند هذه الناحية ...

أيها السادة

مأشبه اليوم بالبارحة ! لم تعد سيناء تجدي كحد طبيعي للدولة الجديدة مادامت تتعرض لهذه الغارات البربرية المفاجئة ومادامت تتاخم دولة الحيثيين في الشمال تهددها الأخطار من ناحيتها ... ودولة الميتانيين من الشرق ... وأحس امراء سورية الخطر المشترك فجمعوا قواهم وآلوا على أنفسهم أن يطهروا صفوفهم من الخونة وأن يضعوا أيديهم في يد مصر ليدفعوا جميعا هذه الأخطار المتلاحقة التي تهدد اقطارهم ... وكانت حملات تحتمس الثالث المتلاحقة تستهدف تأمين هذه الحدود الجديدة وتنظيم البيت في الداخل ... والواقع أن الطبيعة لم تهيء ذلك الجزء من أرض الشرق - تُغَلِّقُهُ الصحراء من الجنوب والشرق - إلى تكوين دولة كبرى وانما انتشرت فوق أرضه حكومات صغيرة ، وجعلت منه الطبيعة مسرحا لألعاب المغيرين من اصحاب المطامع السياسية فكانت أرض الشام تتعرض لوفود المغيرين من أهل الدول التي نشأت في حوض النهرين بينما ظل جنوبها بما فيه شواطئ لبنان على اتصا

وطيد بمصر ... وهكذا ظلت هذه البقاع عرضة لشر المغيرين وهجأهم ...
يصيبها من الجنوب والشرق على أيدي الساميين من بدو الصحراء الرحل
ومن الشمال على أيدي الشعوب التي سكنت مرتفعات إقليم آسيا الصغرى .

وقعت أقاليم الشام قبل أن تقع مصر تحت سلطان الهكسوس فلما كسر
المصريون شوكة الهكسوس انقسمت البقاع السورية واقاليم فلسطين الى اقاليم
صغيرة يحكمها أمراء منهم من يرجع بأصله إلى الآريين ومنهم من ينتسب
إلى بطون القبائل السامية وتعد رسائل العمارنة أكثر من ستين أمارة منها وتعد
حوليات تحتمس الثالث ستة وعشرين ومائة بقعة ووجد الأمراء انفسهم
بين مصر وبابل ودولة الحيثيين التي تثير الفتنة بين الحكام وتضرب بعضهم
ببعض وتستثير ضعاف النفوس منهم ضد مصر حليفهم الطبيعية ولكن سورية
عرفت كيف تفيد من شر الاستعمار ومن خير التجارة فهضمت اقاليمها نهضة
قوية وآية ذلك أنها آوت كثيرا من عناصر ذلك التراث المترف من حضارة
البابليين وحت آثاره من الزوال واسهمت في تقديم الغذاء الفكري والروحي
لأجيال الانسانية المتعاقبة .

وكانت الصلة بين سورية ومصر من قبل قوية متصلة منظمة في آن واحد
وكانت هذه الصلة بالغة الأثر في الحياة الاقتصادية والسياسية والعقلية والدينية
معا واشتدت الصلة أيام الهكسوس ثم رسخت عقب طردهم من مصر وكانت
الظروف الدولية تساعد على ذلك ... فالدولة البابلية التي بلغت قمة مجدها
في نهاية الألف الثالثة قبل المسيح اجتاحتها العيلاميون عام ١٧٦٠ ق. م. ،
والأشوريون الذين ورثوا حضارة بابل اصبحوا يكونون أمة قوية ... ،
وقامت دولة الميتانيين - وحكامها من أصل آرى - إلى غرب اشور ؛
وكان المصريون يسمونها نهرين وتقع عند أعلى الفرات وتمدد حدودها إلى نهر
البلخ غربا وارمنيا شرقا ... ، وكانت دولة الحيثيين في قلب آسيا الصغرى

قد بلغت قوتها عام ٢٠٠٠ ق. م. وأخذت ترنو بأنظارها إلى شمال سوريا والى بابل وادركها الانحلال عند بداية الالف الثانية ثم أقيمت من عثرها حوالى عام ١٥٠٠ ق. م. فهضت نهضة قوية .

* * *

كان لابد أن تحدد الأوضاع بين هذه القوى فى الشرق الأدنى واستطاع الفراعنة وأحلافهم من أمراء سورية أن يوقفوا مؤامرات الحثيين وأن يقضوا على الحونة من أعوانهم فى البلاد وأن يجعلوا من مصر وسورية بلدا يذود عن نفسه شر الطامعين الزاحفين من الشمال والشرق .

وقد لقي الفراعنة العنت فى سبيل تحقيق ذلك الأمر ... واضطرتهم الظروف كارهين الى أعمال السيف وارقة الدماء ورغم ذلك فقد كللت الجهود بآتمام الوحدة التى طوت مصر وفلسطين والشام وبلاد النهرين واقاليم النوبة والسودان ووحدات الصحراء الليبية تحت راية واحدة وقويت الروابط الاجتماعية بين هذه البلاد جميعا وفتحت مصر دور العلم فيها تستقبل الوافدين مبرجة بهم للدرس والتحصيل وعقدت روابط النسب بين فراعين مصر وملوك بابل واشور . وأخذ البلاط المصرى يعج بالسوريين الذين بلغ واحد منهم فى عهد امنحتب الرابع «اختاتون» منصبا من أهم مناصب الدولة .

وكان للدولة الجديدة عاصمة على الساحل الفينيقي هى سيميريه وأخرى فى الجنوب عند عنبية تدار منهما شئون الدولة الى جانب العاصمة الرسمية طيبة وفى عهد اختاتون جعل لمعبوده مركزين رئيسيين يعبد فيهما الواحد فى سورية والآخر فى النوبة كذلك بالاضافة الى اختاتون التى اتخذ منها عاصمة دينية وسياسية معا .

وتشير كتب العمارنة الى المؤامرات التى دأب الحثيون على تدبيرها لاشعال الثورات فى الاقاليم السورية ، وقد وجدوا لسوء الحظ من استجاب لهم ورضخ لسلطان الاغراء ، وأما اصداقاء مصر فقد تنهوا للخطر ونهوا فرعون له ، واتخذت مصر فى نهاية الأمر خطوة حاسمة استطاعت عن طريقها أن تقضى على الشر وتؤدب الحونة .

ولقد كانت حضارة سورية مماثلة للحضارة المصرية – ان لم تكن اسمياً منها في بعض النواحي . ودليلنا على ذلك أنه لم يكن يظهر في مصر قبل ذلك العهد زى عسكري ولكننا منذ بداية الاتصال نشهد دروعاً تمثل صورها على جدران المقابر ... ولم تكن هناك عجالات مذهبة في مصر من قبل ولكننا منذ ذلك العهد نلتقى في مختلف النصوص بقوائم سجلت فيها اعداد ضخمة من العجلات الحربية المصفحة بالذهب والفضة ... ولقد كان ذلك ثراءً فوق مستوى الثراء الذى عهدته المصريون من قبل كما كان فناً جديداً عليهم ، بل اننا نستطيع أن نتلمس في الكؤوس والأواني من الذهب والفضة حضارة شعب في مستوى الشعب المصرى ان لم ترتفع عنها . ولقد اتصلت مصر بأهداب هذه الحضارة اتصالاً مباشراً تجلى أثره بفضل تردد الصناع والعمال ، وان الدقة التى تمتاز بها السجلات المصرية في ذلك العهد تشير إلى جمال وفخامة المنتجات السورية وتشير كذلك الى اوسائل الترفيع التى كانت تتبع لاستقدام الصناع . وقد كثر الزواج بين المصريين والسوريات في هذه الرحلة وكان لهذا أثره في الدم المصرى بعد جيل أو جيلين فبعد أن كنا نرى صور افراد الطبقة العليا من المصريين تمثل وجوهاً جافة نلمس الآن تغييراً صارخاً دخل عليها يشير الى الدم الجديد فنلتقى بملاحة وحلاوة ورقة محببة مما لم يكن معهوداً من قبل ونرى ابتسامة فاتنة وانفاً دقيقاً قليل الاحديداب ونرى النعومة تجل محل الحشونة واللين يأخذ مكان القسوة وقد انتشر هذا اللون من الفتنة واضحا في عهد امنحتب الثالث أكثر مما كان في عهد اسلافه وكانت كل أم سورية تلقن أولادها بعض كلمات من لسانها الأصلية مما ادخل في اللغة المصرية كلمات واصطلاحات وافكاراً سامية جديدة ... وكان لهذا الاتصال المباشر أثره في الحياة العامة في مصر فقد غير من الذوق المصرى والحياة المصرية حتى شمل الكتابة فرقت خطوط الهيراطيقية بعد أن كانت غليظة . كما ظهرت في التماثيل مسحة جديدة من الرقة وقوة التعبير وبدأ المصرى يتخلى للمرة الأولى عن تقاليد الموروثة ويعب من ألوان هذه الحضارة الطريفة العريقة .. وتناول التغيير والتأثير فيما تناول العبادات القائمة في مصر فدخات آلهة جديدة في مجاميع الآلهة المصرية وزاد الاتصال

واتضح آثاره بفضل اقبال الأمراء السوريين على ارسال ابنائهم لدور العلم في مصر ليمزجوا بين الثقافتين وهكذا خرجت الى الوجود طبقة جديدة تفهم الروح المصرية وتستطيع أن تعاون في تدعيم الروابط بين القطرين .

ظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتى اخريات ايام امنحتب الثالث الذي كان يستمتع بمركز ممتاز بين زملائه في العالم الشرقي :

كان لمصر مركز الصدارة بفضل تعاونها مع سورية وارتباطها بها وبفضل الثراء الذي كان يمتد الى نواحي الحياة فيها وتظهر آثاره على اصدقاء مصر واحلافها ... ولكن بابل كان يغطيها غبار التراخي ... اما اشور فكانت لاتزال في المهذلاترنو ابصارها الى أكثر من تعديل طفيف في محيط القوى الكبرى ... واما ميتاني فكانت في اوج مجدها وكان ملكها قد فرغ لئوه من اذلال اشور والغلبة عليها والاستيلاء على عاصمتها وكانت قد ارتبطت بمصر بروابط النسب ولكنها تخشى غائلة الانهيار وكان أمنحتب الثالث بهذه الصورة على رأس عالم يسوده السلام وتحتل مصر منه مركز الصدارة فهي محور التجارة للشرق الادنى وبحر ايجيه ترد اليها اساطيل فينيقيا التجارية ومراكب المينويين وقوافل بابل وافريقيا الاستوائية وهي رابطة عقد هذه الأمم جميعا تربطها في تجارة دولية تنتهي الى مصر ... ولنا ان نتخيل هذا الركن من العالم القديم ماتكاد تزدهر في ركن من ارجائه صناعة او يقوم نشاط في أية ناحية من نواحي الحياة المادية أو العقلية أو الروحية فيه حتى تتجاوب باقي الأجزاء بهذا النشاط الذي يسرى فيها جميعا حتى يصبح عنصرا لازما لحياتها كذلك ، ولعل أشد ما كان يميز هذا العصر هو "الدولية" ذلك لأن ساكن مصر أو سورية أو كريت أو بابل كان يعد نفسه عضوا في جماعة الأمم التي تأخذ نصيبها من الحياة العامة لها جميعا .

وكان كل شيء يتوقف على جهود خليفة امنحتب الثالث ... كان رجلا عظيما من غير شك ولكن في ناحية واحدة فقط : شغل بدينه عن دولته حتى أطمع فيها الطامعين ... كانت كل القوى التي تتواطأ ضد مصر وسياستها تكاد تركز في الرأس التي تتأمر في بوغاز كوى عاصمة الحيشيين في الأناضول ... فهو

عنكبوت يستقر في نسيجه الذي تمتد خيوطه الى بلاد بعيدة يجتذب اليه ضحايا من مختلف الاجناس بينما يقبع في مركزه يكاد يحس كل اهتزازة ويستهدف من ورائها تغييرا سياسيا ... كان يعرف قوته ويقدر ان الدنيا لا بد مقبلة عليه ، وكان صبورا واسع الحيلة ... أخذ يدفع بعض الاقاليم السورية للثورة ونجح في ذلك نجاحا ساعد عليه اهمال اخناتون وسياسته المسالمة ... واستغاث اصدقاء مصر بفرعون بعد أن احسوا وطأة الحِيثين ولكن فرعون لم يحرك ساكنا حتى قضى وجلس أحد قواد الجيش على العرش بعد حكيم قصيرين للمكين ضعيفين واستطاع ان يستعيد لمصر هيبتها ويحفظ لسورية كرامتها .

ولكن المعركة الكبرى كان لا بد لها ان تم ... وقد انتهت بعد حوالى نصف قرن بصلح بين الحِيثين ومصر عن طريق معاهدة في عهد رمسيس الثانى ضمن بها الطرفان السلم والتعاون ضد أى عدو آخر... واستطاع الشرق ان يستمتع بفترة سلم متصل أتمم البلاد حتى استنامت الى الدعة في الوقت الذى كان اعداؤها يقظين متربصين .

في النصف الثانى من القرن الثانى عشر قبل الميلاد عمت الاضطرابات جميع أمم شواطئ البحر الابيض المتوسط فتحركت من اوطانها تدفع بعضها البعض في هجرات شاملة باحثة عن أوطان جديدة ، ويغلب على الظن ان موطن الخطر نشأ في البلقان وتعرضت مصر كما تعرضت بلاد الحِيثين لاختطار هذه المهجرات الحديدية من شعوب البحر وارسلت مصر بالقمح الى بلاد الحِيثين وقضى مؤقتا على عناصر الاضطراب ووقف تيار الغزو الحديد فترة من الزمان .

ولكن فراعين مصر بعد رمسيس الثالث كانوا ضعافا اهملوا شئون الدولة حتى تفككت مصر في الداخل ، وعرفت سورية امر تغير الاحوال الداخلية وتعرضت هي في الوقت نفسه لغارات التكالين وأهالى كريت الذين زحفوا جنوبا مطاردين امامهم أهالى عامور حتى وصلوا الى فلسطين وتمكن التكالين من تكوين دولة مستقلة في ناحية دور جنوبى الكرمل ، وأخذت

هجرات الكريتين تتوالى وأجندوا يتأهبون لسحق الاسرائيليين كما فعلوا من قبل بأهل عامور وبذا انقطعت الصلة مؤقتا بين مصر وسورية في الوقت الذي اخذت قبائل اسرائيل تجمع كلمتها وتحاول ان تجد مكانا لها في فلسطين تحت حكم شاول وداود ثم سليمان الذي دخلت تحت حكمه لأول مرة في الميدان التجارى فحرمت مصر من مواد التجارة العربية وساعد على ذلك انضمام حيرام الصورى اليه واتفاقهما على تبادل الفائض ... اغضب هذا الوضع الجديد فرعون مصر ششنى ووجد في سورية حليفا يستطيع أن يحطم به اسرائيل وافاد من الخلاف الداخلى في اسرائيل وتشير التوراة الى "انه في السنة الخامسة لملك رحبعام صعد ششنى ملك مصر الى اورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك" وتشير النصوص المصرية الى ان ششنى تحرك على رأس جيشة في عام ٩٢٦ ق.م . وتقدم نحو اليهودية وتغلغل شمالا حتى وصل الى اسوار اورشليم واسقطها وانه عاد الى مصر منتصرا يحمل معه الجزية التي سجلت تفصيلاتها على جدران الكرنك بهذه الصورة عاد لمصر بعض مجدها القديم .

ولكنها سقطت في ايدي النوبيين فترة من الزمن ... وكانت اشور تتربص الدوائر بمصر وسورية بل انها كادت تنقض عليهما معا قبيل الغزو النوبى لولا نزاع داخلى آخر امر توغل الاشوريين .

واستقرت الامور في اشور لأسرحدون ، واستعد لغزو مصر ليستريم من نصرتها المستمرة لسورية وليأمن تدخلها في شئون مستعمراته بآسيا الغربية ووصل أسرحدون الى الحدود المصرية في عام ٦٧٤ ق.م والتقى بجيش من مصر يقوده طهرق النوبى واستطاع الجيش المصرى ان يصد أسرحدون ، ولم تفت المفزعة من عضد الاشوريين بل استعد أسرحدون مرة اخرى لغزو مصر . اما طهرق فقد اطمأن قليلا واعتقد ان اشور صرفت النظر نهائيا عن غزو مصر وساعده على ذلك انضمام حلف من الأمراء السوريين وعلى رأسهم الملك بعل صاحب صور الى مصر ضد اشور .

ولكن اسر حدون لم يلبث أن ظهر بعد أربع سنوات (حوالي ٦٧٠ ق.م) وانزل العقوبة ببعل جزاء انضمامه لمصر ثم سارع الى مصر مخترقا طريقا قصيرا في الصحراء دله عليه بعض الخونة من البدو بعد أن كافأهم بسخاء على تأجير جمالهم لحمل العتاد الحربي ومياه الشرب للجيش الأشوري....

ومنت مصر بالهزيمة وسقطت الدلتا في يد الأشوريين ثم تقدم الأشوريون من بعدها الى منف ، وأطمأنوا الى هذا الوضع مُكتفين بجزية الصعيد ، وكانت آشور على كثير من الغلظة والفظاظة ولم تحاول التعرف الى الحضارة المصرية أو احترام التقاليد ولم تكثر بمعبودات المصريين وتعسفت وأمعنت في الظلم والاستبداد مما أوجج الثورة في النفوس ودفع امراء الصعيد الى أن يتكتلوا ويتحدوا مع طهرق ومع امراء الدلتا وجاءت الأنباء الى أسر حدون بذلك وهو في آشور فاسرع بجيشه الى مصر ولكنه مات في الطريق . وعين خلفه آشور بانبيال أحد قواده على رأس جيش أمره بمتابعة الهجوم على مصر ، وكتب النصر مرة اخرى لأشور وان ظل الصعيد يستمتع باستقلال ذاتي . ولم يلبث المصريون أن ثاروا وحاولوا التخلص من المستعمر الأشوري ومن زحف نوبي جديد على الجنوب ، وكان نيكاو الأمير المصرى يتزعم حركة تطهير مصر من المستعمرين ولكنه قتل في المعركة عند منف أما ابنه پسمتك ففر الى سورية والتحمت جيوش النوبة بجيوش آشور عند منف عام ٦٦١ وتقدم الأشوريون حتى طيبة فخربوا معابدها وسلبوا مقتنياتها . . . وكان المصريون يجمعون قواهم وأستطاعوا تحت قيادة پسمتك أن يخلصوا مصر في نهاية الأمر من سلطان آشور وحاولوا أن يخلصوا سوريا وفلسطين ولكن سوريا وفلسطين لم تكونا قد سلمتا من ضربة القدر التي اجتاحت امبراطورية آشور وبدأ أصحابها يتلقون ضربات السبثيين وجهدت مصر في مد يد العون ولكنها لم تستطع أن تنقذ سوى فلسطين وأما سوريا فلم تحرر إلا في عهد خلفه نيكاو الثاني وبدا عاد لسورية ومصر استقلالهما مرة اخرى واسهم بحارة فينيقيا في عمليات الكشف الجغرافي بالدوران حول القارة الأفريقية وأما الجيوش المصرية فظلت تتقدم حتى الفرات دون

أن تلقى مقاومة لأن آشور كانت تحتضر ، وبذا عادت لمصر وسورية بعض أمجادها السابقة لولا ظهور بابل في الميدان وقضاؤها على آشور مما استدعى وقوع معركة جديدة في قرقميش كان من أثرها هزيمة المصريين وسقوط سورية فريسة للغزو الجديد . وعاود نيكاو محاولة اضرام نيران الثورة في سورية وفلسطين ضد بنوخذ نصر وحين ولى واح ايب رع عرش مصر كان بنوخذ نصر مشغولا بأطماعه في ميديا وكانت فينيقيا قلقة وكان الحكم الكلداني نيرا ثقيلًا على الأعناق وكانت صور وصيدا قد استطاعتا الفكاك منه، وكانت موعاب وادوم ترفضان دفع الجزية ... وازداد الموقف حرجا بسقوط اليهودية بين يدي بنوخذ نصر وتحرك واح ايب رع الى فلسطين مستهدفا فك الحصار المضروب حول اورشليم ، وأساءت صور فهم هدف تحركات الجيش المصرى والاسطول المصرى فكانت حجر عثرة في سبيل التقدم لرفع الحصار عن بيت المقدس فسقطت عاصمة يهوذا سنة ٥٨٦ ق.م. ودمرت المدينة واقتيد أهلها للسبي ...

ولم تلبث الدائرة ان دارت على بابل فسقطت ثمرة ناخجة في يد قوة جديدة هى قوة فارس ، واحست مصر أن دورها آت وقد تم ذلك في عهد قبيز . وهكذا سقط شرق البحر المتوسط بأكمله في يد الفرس .

ولكن لم تلبث الثورة أن عمت الأقاليم التي تحكمها فارس جميعا شغلت بها فينيقيا وشجعها على ذلك المقاومة التي كللت بالنجاح على يد نقطانب الملك المصرى من ملوك الأسرة الثلاثين ، وكذا العداوة التي أظهرتها أسبرطه والمضايقات التي سبها السوريون .

وإنا نرى في هذه الرحلة من التاريخ وحدة شاملة تجمع كل الاقاليم من مصر الى ليكيا بما في ذلك فينيقيا وسورية وكيلىكيا وپامفيليا وپيسيديا تتآلف جميعا لتتزع عن عاتقها نير فارس ، وأسهمت أسبرطه في ذلك المضمار بجيش أرسلته الى مصر تحت أمره اجسلاوس وكان خبرياس الاثينى

يقود الاسطول ، وتقدم جدحر الفرعون المصرى خليفة نقطانب الأول بجيش نحو فلسطين ليحتل المواقع التى ينزل بها الفرس ولكن الحيانة دبّت فى صفوف الجيش وخشى هو على مصيره فلجأ الى عدوته فارس ومات ارتجز ركسس بعد ذلك بقليل (عام ٣٥٨ ق م) . ويظهر أن خلفه الضعيف اوخوس قنع بالاحتفاظ بفينيقيا ما دامت مصر قد نجحت فى استعادة استقلالها رغم محاولاته ... واستجابت مصر لنداء الثورة التى قامت فى صيدا ضد قواد اوخوس (ارتخشاشا الثالث) ذلك أن الفينيقيين عقدوا اجتماعا فى طرابلس عام ٣٥٢ ق م أعلنوا فيه عدم خضوعهم لفارس فجهز أوخوس أسطولا وسارت مصر تمد يد العون للثوار ، وتلقى ملك صيدا من نقطانب الثانى مددا من السفن الحربية وبها أربعة آلاف من المتطوعين ، ونهجت قبرص نهج فينيقيا فأعلنت الثورة ضد فارس كذلك

وأحست فارس أن الأمر كاد يفلت من يدها فجندت جيشا ضخما واستطاعت عن طريق الخونة أن تتقدم فتحاصر الصيقلونيين واستعملت أعنف وسائل القسوة ضد الصوريين الذين انتحروا حرقا حتى ظلت قسوة فارس وصمة لا تمحى سرعان ما لقيت عنها سوء الجزاء ، ذلك أنه بعد اندحار الجيش الفارسى فى موقعة أيسوس قرب خليج الأسكندرونة تقدم الاسكندر المقدونى جنوبا ليؤمن سيطرته على البحر فغزا فينيقيا وأرسل قواده الى دمشق ، وقاومت صور ثم استسلمت بعد حصار دام سبعة شهور ، أما غزة فقد أقسم حاكمها الاسود باتيس أن يموت دون التفريط فيها وقد جرح الاسكندر خلال حصارها وكاد يموت ولكن المدينة سقطت فى نهاية الأمر ودمرت وبيع أهلها عبيدا ودخل الشتاء قبل أن يتمكن الاسكندر من شق طريقه الى مصر ... ومر ببلوزيوم فى شهر ديسمبر ووصل الى منف يعد أيام قليلة ... واستسلمت مصر وأصبحت سورية ومصر جزءا من امبراطورية الاسكندر .

وبعد موت الاسكندر قسمت امبراطوريته فكانت مصر من نصيب بطلميوس وأما سورية وفلسطين فالحقتنا في أول الأمر بآسيا الصغرى
وبعد معارك بين سلوكس وبتلميوس من ناحية وبين صاحب آسيا الصغرى من ناحية أخرى الحقت فلسطين سنة ٣١٢ ق. م. بمصر. واستعاد سلوكس في العام نفسه بابل .

وبعد معركة أخرى عام ٣٠١ ق. م. أخذ سلوكس الجزء الشرقى من آسيا الصغرى وجميع سورية من الفرات الى البحر المتوسط ، وابتنى في سورية مدينة انطاكية وسماها باسم أبيه انطيوخس وجعل منها مركزا للحكم السلوقى في سورية . ويعد عام ٣١٢ ق. م. بداية العهد السلوقى (أو العهد اليونانى في الشام) وتأسيس المملكة السلوقية في سورية وقد لقب السلوقيون أنفسهم بلقب ملوك سورية كما لقب البطالمة أنفسهم في مصر بالقاب الفراعنة ...

ولم يمر حكم السلوقيين على البلاد دون متاعب بل تعددت الثورات ضده واستغلت دويلات عربية (نبطية) في سورية الفرصة للاستقلال ، وظهرت حوالى عام ١٣٩ ق. م. سلالة عربية حكمت في أديسا (الرها) ، ونشأت أخرى في حمص لم تتبع السلوقيين إلا اسماً ، ونشأت ثالثة في سورية البقاع ...
وكون الأنباط العرب الذين سبق أن طردوا الأدميين من البتراء سنة ٣١٢ ق. م. مملكة قوية واستطاعوا أن يضموا جميع سورية البقاع حوالى عام ٨٥ ق. م. بما في ذلك دمشق .

وبعد حروب مرهقة طويلة بين الرومان والأرمن ، والسلوقيين استطاعت روما في عام ٦٤ ق. م. أن تسيطر على البلاد السورية في عهد بومبي ودخلت سورية تحت الحكم الرومانى ووضعت تحت حكم مباشر لوال رومانى حول سلطات واسعة هو جابنيوس وأعقبه كراسوس الذى كان عضواً في الحكم الثلاثى الأول في روما وقد جعل من سورية مركزاً لعملياته الحربية ضد الفرثيين ولكنه هزم على أيديهم عام ٥٣ ق. م. وخلفه كاسيوس الذى استطاع أن يتغلب عليهم عام ٥١ ق. م. وأعقب ذلك عهد اضطراب بسبب الحروب الأهلية والنزاع بين بومبي وقيصر .

ثم صارت سورية ومصر معاً من نصيب أنطونيوس مدى أربعة أعوام (٤٠ - ٣٦ ق.م.) وانهز الفرثيون فرصة ركونه إلى الدعة فضموا سورية إلى امبراطوريتهم ، وبعد موقعة اكتيوم وانتصار اكتافيوس عاد الحكم الروماني إلى سورية وتوج اكتافيوس بعد أربعة أعوام امبراطوراً تحت اسم أوغسطس .

وخلال القرن الأول من الحكم الإمبراطوري في روما استطاعت سورية أن تستعيد ازدهارها الاجتماعي والاقتصادي حتى غدت بلاد الشام ولاية هامة في امبراطورية ضخمة ونشأت هناك مدرسة للفلسفة كانت تشمل - كالاكندرية - العناصر اليونانية والشرقية ، وحاولت أن تغلف الدين بالفلسفة ؛ ويشير سترابو الى جماعة من معاصريه المبرزين ظهوروا في صور وصيدا مثل فيلو من جبيل وتلميذه هرميئوس من بيروت ويورفرى الملقب بالخبوس من أبوين صوريين رغم أنه ولد في باتانيا في شرق الأردن . وأصبحت بيروت مركزاً للدراسة القانون وظلت مدى ثلاثة قرون تخرج المشرعين لشرق الامبراطورية . أما ماريانوس الصوري الذي كان يعيش في الجزء الأول من القرن الثاني الميلادي فكان أول مؤلف وضع الخرائط متبعاً في ذلك خطوط الطول والعرض المبنية على أساس حسابي ولا بد أن خرائطه - كخرائط بطلميوس - اعتمدت على سجلات الرحلات والأسفار التي ترجمت فيها المسافات الى خطوط عرض وطول ومن الطبيعي أن تقدم فينيقيا هذا التراث وهي زعيمة الملاحة والتجارة في الشرق .

ظلت بلاد الشام مركزاً عسكرياً هاماً للرومان حتى استطاع أحد القواد فيها أن يعتمد على جنده في عام ٦٩ م. في تنصيبه امبراطوراً ، وكانت أنطاكية العاصمة تعد ثالث مدن الامبراطورية (بعد روما والاسكندرية) وكانت تنافسها اللاذقية الشهيرة بكرومها وخورها . أما حمص فاستطاعت في هذه المرحلة أن تحتفظ بحكم ذاتي كما حافظت عليه كذلك دمشق وتدمر واديسا (الرها) ، ومنذ عهد هديران بدأت دمشق تتخذ أهمية خاصة بين غيرها من المدن السورية .

وقد ظهرت المسيحية في الجزء الجنوبي من سورية في فلسطين ولقيت في أول الأمر اضطهاداً وعنفاً في المقاومة حتى عام ٣٢٤ حين اعترف بها ديانة رسمية بعد أن غدا تيار انتشارها أقوى من الاضطهاد .

ومنذ عام ٢٠١ استقرت الأمور لـ Severus فجند الصوريين في الكتيبة الثالثة التي كانت قد استقرت في سورية وفينيقيا منذ زمن بعيد وسرعان ما عادت صور الى الازدهار حتى لثرى St. Jerome يشير اليها كأجمل مدن فينيقيا وكمركز للتجارة العالمية .

أما مصر فقد ظل الأمر فيها بعد احتلال الرومان لها كما كان في عهد البطالمة ، وان استبدل الموظفون اليونانيون الذين يشغلون الوظائف الكبرى بموظفين من الرومان .

وكانت روما تعتمد على مصر في تجهيزها بالحبوب حتى غدت تعرف كأنما هي مزرعة حبوب لروما ، ولذا عني أباطرة الرومان بضبط الأمور وصيانة الأمن حتى لاتحدث مجاعة في روما .

وأخذ الحكم العسكري يضيق الخناق على الأهلين وأخذ الرومان يقربون إليهم الحاليات اليونانية ... وأخذت مصر تن من الجور والعسف ومن انحطاط الأحوال عامة ... وكان الوضع يزداد سوءاً في عهود الأباطرة الضعاف حيث تتعرض البلاد الى هجمات العدو وتخريبهم وعم فساد الادارة ولم تستنقذ البلاد الى فتح جديد هو الفتح العربي على يد عمرو بن العاص عام ٦٣٩ م . في عهد الخليفة عمر وبدأ بذلك عهد جديد انطوت فيه الصعائف الأخيرة التي يميزها التدهور والانحطاط وانضمت مصر وسورية الى ركب الحضارة العربية الاسلامية وأسهمت معاً في بناء صرح تلك الحضارة الخالدة على الزمان وبدأت معاً تخطان صفحة جديدة من سفر جديد يبشر بأضواء الفجر تتسلل بعد ظلام الليل الطويل .

تم بحمد الله ، طبع هذه المحاضرة ،
بمطبعة جامعة الاسكندرية في يوم الثلاثاء
١٢ من رمضان سنة ١٣٧٧ هجرية ،
الموافق أول أبريل سنة ١٩٥٨

على محمد الرهوارى
مدير مطبعة جامعة الاسكندرية